رسالة الإمتنان و الرحمة
إلى سائر الأمة[1]

بسم ا الرحمن الرحيم و صلى ا على الفاتح الخاتم و على آله و صحبه و سلم

إن أحسن ما ينفق في اقتنائه أنفس الأنفاس. و تتنافس في المسارعة لإدراك نتيجته نفوس الأكياس. حمد ا الذي به تتم الصالحات. و تنال به الرغائب. و تقضى به المطالب. من جميع الخيرات. في الحياة و بعد المماة. فنحمده سبحانه، و هو أهل الحمد في كل ما أخفاه أو أظهره. ونشكره على ما أولانا و هو أهل التقوى و أهل المغفرة.

خلق الخلق و أعطى   كل خلق ما استحقـ ـه
و تعالى ا قـ ـدرا   أن يوافي الخلق حقـ ـه

تفضل على الخلق بنعمة الإيجاد و الإمداد. فعم الوجود بجود ماله من نفاد.

فعم و خص بما شاء من   مواهب من بحر فضل وجود
فلم تخل عن سر إمـ ـداده   و ألطافه ذرة في الوجـ ـود

[1]- هو من مؤلفاته القديمة التي كتبها إبان فترة تواجده بمدينة فاس، وعلى وجه التحديد في خضم سنة 1333 هـ-1915م، أراد به أن يكون مقدمة وتوطئة لمجموعة من المطالب النبوية العالية، خصوصا وقد وضع يديه على جملة وافرة منها، وذلك لتسهل قراءتها على المطالع من جهة، وليعرف قيمتها ومكانتها السامية من جهة أخرى، مع التنبيه له على ارتداء جلباب التسليم، احترازا من وقوعه فيما لا يحمد عقباه من الإنكار والاعتراض.
والكلام على المطالب يجرنا للحديث عن الواسطة المعظم سيدي محمد بن العربي الدمراوي، نظرا للصلة الوثيقة بينه وبين هذه المطالب العظيمة، ولهذا قال العلامة سيدي أحمد سكيرج في مطلع ترجمته له من كتابه كشف الحجاب: وقد كان واسطة بين سيدنا الشيخ رضي الله عنه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فيما لا يقدر أن يطلبه منه مشافهة لشدة الحياء، كما هي عادة أكابر الأفراد المحمديين، في كونهم يستعملون وسائط بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم في طلب ما يريدونه منه، ولا يقدرون أن يخاطبوه من شدة حيائهم منه صلى الله عليه وسلم، واستغراقهم في محاسنه عند الإجتماع به، ونسيان أنفسهم وجميع مطالبهم بين يديه صلى الله عليه وسلم، كما قلت:

إني لأضمر في نفسي مطالب لـي   إذا رأيت حبيب القلب أذكرهـا
حتى إذا ما اجتمعنا صرت ناسيها   كأنني لم أكن من قبل أضمرها

و أعظم نعمة أولانا مولانا. أن جعلنا من أمة عبده الذي اختاره فضلا و امتنانا. و قد تمنى الأنبياء أن يكونوا منها مع جلالة مقدارهم. و علو مناصبهم. و كمال أنوارهم. و ما ذاك إلا لما لها من الخصوصية بهذا النبي الرسول. الذي رفع ا ذكره. و عظم قدره. فصلى ا عليه وعليهم أزكى صلاة و أذكى سلام. و على آله و صحبه و التابعين من الأنام طول الدوام. ورضي ا عن شيخنا يم المعارف. و برزخ اللطائف و الطوائف. الآخذ من الضمان المحمدي مواثق و عهودا. والمانح بالإرث الأحمدي بين الوجود لكل مستمد من الحضرة الأحمدية مددا وجودا. الختم المعلوم. القطب المكتوم. أصيل الشرف الديني و الطيني:

و من محبته في القلب راسخة قوى بها ا في أولي الهدى ديني

شمس السعادة البازغة في أفق السيادة. أبو الفيض الشيخ المربي بالهمة و الحال، و إكسير السعادة التي تصلح الأحوال. و تنقذ من الأوحال. الغوث الصمداني. سيدنا و مولانا أحمد التجاني، قدس ا سره. و أفاض علينا و على المحبين سره و خيره، و نسأله سبحانه أن يجعلنا من خاصة الخاصة من أحبابه و أصحابه في الدنيا و الآخرة، و يتجاوز بفضله عما اقترفناه سرا و جهرا، إنه ولي ذلك.

و بعد، فإن نفحات العناية تهب على القلوب فتحييها أرواحها. فتنشط الجوارح من عقالها بأكمل نشاط لنيل ما فيه صلاحها. و لا تهب إلا على من خُص بألطاف خفية، و لا يستنشق عرفها الذكي إلا من كُتِبَت له الحسنى في الحضرة العلية. فاستنشق عرفها. فتتبعه حتى شاهد لطفها. ولم تمنعه النفس. عن الدخول لحضرة القدس. و لم تحبسه المعاصرة عن النظر لأهل وقته بعين التعظيم. و لم تحجبه البشرية عن الإهتداء بأهل ا السالكين على الصراط القويم، بل نظر لنفسه بعين الإعتبار. و عرف منها ما لم يعرفه غيره فيه بمعيار الإختبار، فصدق ا في معاملته. و لم يزك نفسه في مجال مجاملته. فصار ينظر إلى المخرج له من مورط التهلكة. التي تجر النفس إليها في كل معركة. فطفق يتعلق بحبالٍ أدلاها الحق من حضرة التقرب إليه لمن ساقه إليها بين الخلق. ألا وهم شيوخ الطريق في كل فريق.

هم الشيوخ دعوا فانبعثـت بواعث الخير بالتصديق في زمر

فاستمسكوا منهم بحبل حبهـم فجرهم حبهم للفتح و الظفـ ـ ـ ر

و هذه عادة ا في خلقه أن من تعلق بحبل من حبال أهل ا لا بد من انفجار ينبوع المعرفة من قلبه بعدما يذوق حلاوة الإنتساب لجنابهم الذي من دخله أمن من شر العاقبة. و انتصر الحق له من معاديه بأشد محاربة. بمقتضى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب[1]، و قلما سلم في الدنيا من مد يد الإساءة إلى واحد منهم. أو نظر بعين الإعتراض على أحوالهم التي لم يؤمر أهل الإنابة بالاقتداء بهم فيها و أخذها عنهم. و كيف يسلم من التهلكة من ألقى نفسه من شاهق الإنكار. المفضي إلى حضيض البوار. و لقد قيل:

أبى ا إلا أن يعظم جانبـ ـ ـ ـه	و يرغم من يزري به و يجانبه
و كل امرئ أضحى يريش سهامه	ليؤذي أهل ا فهو محاربـ ـه
و ليس بناج لا محالة من غـ ـدا	محاربه هيهات و ا طالبـ ـه

أما و ا لا منجى له و لا منحى إلا المسارعة بالتوبة. قبل توثير قوس الحرمان بسهم الطرد له عن الحضرة التي لا يدخلها من كان مثله منظورا بعين المقت عند ا و رسوله. بما جره على نفسه بالإعتراض على أهل ا . و النظر إلى أي فرد منهم بعين لا ينبغي أن ينظر بها لما له من الحرمة عند ا ، فإن أهل الخصوصية مؤيدون على رغم أنوف المبغضين. و كلهم على قلب واحد في المدافعة عن حماهم بطرد من فيه أدنى بغض للبعض منهم، و الإنتصار لكل فرد منهم انتصار . و بانتصارات البعض للبعض ينهزم المعادون و المعاندون، أولائك حزب ا . ألا إن حزب ا هم الغالبون.

إن أهل ا في الخلق لهم	رتبة تعنو لها كل الـ ـرؤوس
كل من عـ ـاداهم مجندل	حل في بوس به تفنى النفوس

حتى قيل لو كشف الغطاء عن المعترض على أهل ا و المؤذي لهم و لآل البيت لريء بالعيان مسربلا بسربال المقت. متجردا عن حلل الإيمان. متأبطا شرا يفضي به في الدارين للخسران.

---

[1]- أنظر نص تخريجه في ص ، ويعجبني في هذا الصدد قول الشيخ إبراهيم الرياحي التونسي ضمن قصيدته الميمية المشهورة حيث قال:

لا تجادل في الأولياء وسلـم	قبل توتير قوس أيـــــد رام
بشر الخائضين فيهم بحرب	من قوي في بطشه ذي انتقام
ربِّ إني صدقت كل ولـــيٍّ	راعيا قدرهم بعين احتـــرام
غير أن ابن سالم هو شيخي	وملاذي وعمدتي وإمامـــي

عياذا با من الخذلان. ولهذا تجد العارفين با يحثون على تعظيم الشيوخ. وعلى احترامهم والنظر لحرمهم بعين الإجلال. والإذعان لهم في كل مقام لما لهم في جناب الحق من عنايته بهم من كمال الرسوخ. و لم يتصدر شيخ منهم صادق في حاله و مقاله إلا و كان أول ما يصدع به من الأوامر التي لا تصح الرابطة بينه و بين متابعيه إلا باتباعها. و شد اليد على عروتها هو الاشتراط عليهم من أول السير إلى منتهاه احترام أهل النسبتين.

و إن طريق الحق تدعو مريدها   ألا إن سري في احترام الشيوخ
فإن رمت يا هذا الوصول حقيقة   إلى ا كن في حبهم ذا رسوخ

فالنسبة الأولى الإنتساب إلى ا . فمن قام بلسان الدعوة. و توفرت فيه شروطها بين أهل الفتوة. بحيث لم يبح حراما أو يمنع حلالا. و لا علم لديه في الباطن أو الظاهر. و لا فرقان له يهتدي بنوره من أول الآخر و إلا تنزل عليه قول الششتري:

إذا لم يكن علم لديه بظاهر   و لا باطن فاضرب به لجج البحر[1]

و مراده بالضرب به الإضراب عنه بتطلب غيره، فمن توفرت فيه تلك الشروط لأنه لا يصلح للإقتداء من لم تلح عليه دلائل الإهتداء، و هذا في حق من يبحث عن الشيوخ للتعلق بحبالهم ليوصلوه إلى الغاية التي لا مطلب بعدها، فإنه لا يليق به إلا من تَوّجَهُ ا من العلم و المعرفة بتاج القبول، و نهج على منهج الحق في متابعة الرسول صلى ا عليه و سلم، و مع هذا فلا يعرض عنه بتجريد حسام الإنكار، و إلا صادمه ما يعارضه في سيره من شديد البوار.

أما العالم المحق فإن رأى مخالفة في ما لديه من الرسوم العلمية و الحدود الشرعية التي أمره الشارع بإنكارها و الإعتراض على المتجاهر بها. و قام بواجب ما أمر به فهو إن سلم من حظ النفس في الإنكار على من تلك حاله في إقبال أو إدبار فيرجى له السلامة. غير أنه قل من يسلم من حظوظ النفس من الجامدين على النصوص الظاهرية، فإنكارهم غالبا مشوب بها. و بمجرد ما يكون مشوبا أوقع صاحبه فيما لا يحمده في العاجل. و يسوءه في الآجل. فالسلامة في حق الكثير من أهل العلم غير متحققة لهم. و لكن الحق فيما قيل:

[1]ـ هو البيت السادس عشر من القصيدة المسماة (أنوار السرائر وسرائر الأنوار) للعلامة الصوفي أحمد بن محمد الشريشي.

إن السلامة من سلمى و جارتها　　　أن لا تحل على حال بواديها[1]

و أما النسبة الثانية فهي الإنتساب إلى الرسول صلى ا عليه و سلم ممن هو من أهل بيته الذين لا يدخل الإيمان قلب أحد إلا إذا تمكن فيه حبهم. و لا يصح الحب إلا باحترامهم. و لا أقل من الإحترام في الظاهر من ترك مواجهتهم بما يؤذيهم في غير استخراج حق. فإن استخراج الحقوق منهم على وجه لا يخرجهم به من النسبة من كلاف بإخراج الحقوق لا يعد من الإذاية لهم التي توجب منه لجدهم العقوق. غير أن النفوس قد تراكم عليها الضلال. فضلت في الغالب عن استخراج الحق من غير استطالة أو انتهاك حرمة. إلا في نادر ممن لاحظتهم العناية. فلم يفرطوا بضياع الحقوق. و لم يفرطوا بما يؤديهم للعقوق.

فالسلامة في هذا الموطن إنما تتحقق لمن لم يتداخل بين أهل النسبة بأدنى اعتساف. و أنصفهم من نفسه بما لا شيء فوقه من الإنصاف، أما الحب الباطني في جانبهم لو تغير بأدنى شعرة في هذه النسبة لانسل الإيمان من القلب المتغير كما تسل الشعرة من العجين، و لو كان له في نفسه من الشرف القدم المكين، و لكن لا شرف إلا لمن لهم هذه النسبة، فهي لا تسلب عنهم و لا تنزع، و هو الذي أعتقده بحمد ا في البضعة المحمدية من أنه لا يشوبها أدنى دنس. فهي جوهرة في غاية الصفاء

أقول قولا حسنا قلتــه　　　ما النفس فيما قلته آثمــه
لكل شيء جوهر حسن　　　و جوهر الخلق بنو فاطمه[2]

و لا بدع أن قضى الحق أن لا يوجد منهم بين الخلق إلا طاهر ابن طاهر و طيب ابن طيب. وأن لا يتكون من نطفة زنى من زنى منهم ولد. و أن لا يموت على غير الإيمان في الباطن منهم أحد. و إن كان غير المعصوم ليس بمعصوم من الوقوع في الذنب، و لكن في اعتقادي أن

[1]- ذكره العلامة أبو حيان التوحيدي في كتابه: الصداقة والصديق، وذلك بتركيب آخر غير هذا التركيب، حيث قال: ولقد قلت لابن أبي كانون: لِمَ لا تخالط أصحاب ابن الرازي؟ فأنشد:
إن السلامة من سلمى وجارتها　　　أن لا تمر بواديها على حال

[2]- هما للوزير الشاعر الأديب المعروف بالصاحب بن عباد

البضعة المحمدية محفوظة بعناية الله إلى قيام الساعة من مثل هذا الثلب[1]. فإن فرض أحد في الظاهر أنه منهم و توفي على غير الإيمان فهو في الحقيقة منتحل للشرف، دخيل في أهل النسبة العالية الشرف.

فأكرم بساداتنا آل البيت الكرام. فقد نزه الله ساحتهم عما يكون عرضا تستحيل به العين إلى الخبث، بعدما جزمنا بأنهم أطيب الخلق لارتباط تناسلهم بحبل الأصل. و هو الشرف الذاتي من سيد الرسل. فهم منه و إليه. فشرفهم مُحَقق. و هو اعتماد أهل الحق. و قد طغى هنا في هذا المقام علم قوم فتعدوا قدرهم بالطعن في الأنساب. و جاوزوا حدهم بما أوقعهم في سوء الظنون بهم بين الأعداء و الأحباب، حتى قال بعض طغاة الشعراء:

أكثر وطء الناس من شبهة ... أو من زنى و الحل فيهم قليل
فابن حلال نادر نـــادر ... و النادر النادر كالمستحيـل

و لما سمع بهذا ابن المظفر أجابه متهكما عليه:

ألا قل لسيدنا الشـــاعر ... و لا تخش من طبعه النافر
أمن شبهة أنت أم من زنى ... فما أنت بالنادر النـــادر[2]

---

[1] - إشارة للفضائل الجمة التي منحها الله لساداتنا أهل البيت النبوي الكريم، ولعل من أبرزها تطهيرهم من الرجس بمقتضى قوله تعالى: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. إهـ.. فهم محفوظون من الدنس والأوساخ والرعونات، مأمونون من الممات على غير هذا الدين الحنيف، ولهذا قال في حقهم مولانا الشيخ رضي الله عنه: عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر، يقال لهم اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم، وأما أهل التوفيق منهم فلا يلحقهم غيرهم، وذا مذهب أهل التحقيق. ورحم الله العلامة الشاعر عبد الله بن محمد الشبراوي، أحد مشايخ جامع الأزهر الشريف، حيث قال في قصيدة له في الغرض نفسه:

أنا في عرض آل بيت نبـــي ... طهر الله بيتهم تطهيــــــرا
سادة أتقياء أعطاهم اللـــــــه مقاما ضخما وملكا كبيـرا

إلى أن قال:

يا بحور الكمال يا آل طـــه ... كم مننتم وكم جبرتم كسيـرا
كم أغثتم من جاءكم مستغيثا ... وأجرتم من جاءكم مستجيرا

إلى أن قال في ختامها:

يا أخا الشوق هل ترى لبني عبــــــد مناف في العالمين نظيــرا
هل على غير بيتهم نزل الوحــــــي بجبريل خادما مأمـورا
هل سواهم قد أذهب الله عنه ... الرجس نَصًّا في ذكره مسطورا
لا ومن خصهم بأشرف جـد ... قد أتى بالهدى بشيرا نذيـرا
كم شريفٍ تراه في السلم بدرًا ... وتراه في الحرب ليثًا غيورا
هم ملوك على الملوك جميعًا ... رفعة هاشمية لن تبـــورا

[2] - البيتان للشاعر عمر بن مظفر المعروف بابن الوردي، وهو أحد شعراء العصر المملوكي توفي سنة 749 هـ

و لو كان حبس لسانه عن مثل هذا الفحش. ما أوقع نفسه فيما انطبق عليه بأتم مطابقة. ولا انطبع فيه ما رءاه في مرءاة غيره الذي لم يدركه بترك الفضول بمسابقة. و لو تفطن لمثل هذا بعض دهاة العلماء كالمقري ما لفظ بما بقيت المعرة فيه عليهم في قولتهم الشنيعة من قولهم: ليس على فروج النساء أقفال. فهي معرة. لهم فيها مضرة. و أشنع بها معرة. لا توازيها معرة. و لقد حفظت في هذا المقام هذه الأبيات من قصيدة في مدح سيدنا العباس عم النبي صلى ا عليه و سلم. ختمت بها باللون الأحمر:

خذ سنة ا بين خلقه أبـ ـ ـ ـ ـدا	و لتجعلنها لديك خير قسطـ ـ ـ ـاس
ما عظم المرء آل البيت دون مرا	إلا و عظم عند ا و النـ ـ ـ ـ ـاس
فالحظ بعين كمال الفضل قدرهـ ـم	و اخضع لهم دائما بالقلب و الراس[1]

وإني و أيم ا لتسؤني تلك المقالة. التي هي أدهى و أمر من كل مقالة شنيعة بالأصالة. وتسوء كل إنسان لتنزلها على كل فرد من النسل الآدمي. بما اسودت به بيض الوجوه في الوجود. وتعين بها حد كل من نطق بها في معرض بين الشهود، و قد اتسع الخرق بها. و هي الداهية الطامة. فاستشهد من يظن بهم العلم في هذا البساط بمثل قائل هذه القولة الفظيعة. و بعض الجلة يلتمس الأعذار لمن صدرت منه و يحملونها على محامل. و ينزلونها على التربية. و نحوها مما لا يصح قبوله في المعذرة. لسريان معرتها لكل آدمي. و في ذلك إذاية تامة في جانب البضعة المحمدية المراد تطهيرهم عند الحق بإذهاب الرجس عنهم.

[1]- يذكر العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في مقدمة كتابه شرب المدام بتخميس أبيات رأيتها في المنام، أنه رأى في منامه قصيدة في مدح سيدنا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وهي ذات قافية سينية، ختمت بثلاثة أبيات بلون مخالف لباقي القصيدة، وهو الأحمر، وقد حفظ هذه الأبيات الثلاثة، التي ظلت راسخة في ذهنه بعد استيقاظه من النوم، ففرح برؤياه المذكورة أيما فرح، كما طلب من كافة أصدقائه العمل على تخميس هذه الأبيات، فلبت طلبه جماعة من خيرة علماء وأدباء جيله، إلى أن بلغ عدد الذين خمَّسوا هذه الأبيات ثمانية وأربعين عالما وأديبا، معظمهم من المغاربة، باستثناء أربعة سنغاليين وتونسي واحد.

و حاشى جنابهم من رميه بمثل هذا الرجم. فليحذر المُوَفق من إساءة الأدب على هذا الجناب، فإن البضعة المحمدية وجودها في الأرض أمان لأهلها[1] من الخسف و المسخ و كل بلاء عام إلى يوم القيامة، و هم الباب المفتوح الذي يُدْخَلُ منه لحضرة الإجتباء. و لا أقرب في الوصول إلى غاية المقاصد من نيلها على أيديهم بصدق المحبة في جنابهم، و الذب عن حماهم بكل ما أمكن، و السعي في قضاء حوائج كل من انتسب لهذه البضعة بقدر الإمكان، و إظهار الأدب اللائق بكل منتسب منهم في سر و إعلان.

و لهذا تجد الخاصة من أهل ا محافظين على القيام بحق هذا الأدب، و يحذرون غاية التحذير من الإلتفات أدنى ميل لبغض من له قد انتسب خشية الطرد الذي لا قبول بعده، و لا تجدهم يودون مبغضا و لا ينال منهم قصده، و كلما ارتقى أحدهم في المقامات العرفانية ازداد أدبا مع آل البيت، علما منه أنه لولا محبته في جنابهم لرجع القهقرى، و لا نال بلا صدق المحبة فيهم وطرا، فهم حجاب الحضرة يسدلون الحجاب في وجه من لم يكن من حزبهم الحبي، و يرفعون الحجاب عن مخدرات الخيرات لمن تعلق بأدنى سبب بما لهم من الخلافة في الوجود عن ا بالتصرف الوهبي

أولائك أهل للنبي و آلـ ـ ـه	ألا إنهم ساداتنـ ـا و موالينـ ـا
يقول لسان الحال منهم مفاخرا	بحق أَلَا مَنْ في الوجود يدانينا

و لقد أحسن من قال في حقهم:

آل النبي لهم في نفس نسبتهم	قدر عظيم له في المجد غايـ ـات
فالأولياء و إن علت مراتبهم	في رتبة العبد و السادات سادات

[1] ـ إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الإختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس، رواه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة) باب أهل بيتي أمان من الإختلاف 3: 162 رقم 4766. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34189. ومما يناسب هذا الموضوع قول العلامة الأديب يوسف النبهاني ضمن قصيدته الهمزية التي تقع في 999 بيتا، قال في معرض التنويه بأهل البيت الكرام:

أنتم كلكم أمان لأهـــــــل	الأرض إن زلتم أتانا الفَناءُ
وبكم تُؤْمَنُ الضلالة كَالقُرْ	آنِ فيكم للمقتدين اهتـــــداء
أنتم للنجاة خير سَفِيـــــنٍ	كلما فاض في البرايا البلاء
أنتم بضعة النبي فكونــوا	كيف كنتم فما لكم أكفــــاء

فلا يقوم بواجب حقهم إلا صديق، و لا يتهاون به إلا زنديق، ثم إن تفاوت أهل خدمة جنابهم على تفاوت مراتبهم في أفق السعادة، و علو مقداره في السيادة، و لقد بلغنا عن شيخنا العارف با خاتم الأولياء المحمديين القطب التجاني رضي ا عنه و عنا به أنه كان يبلغ به الإحتفال بأهل النسبة ما كان يؤثر في قلوب المحبين سرورا، و في نفس المعاديين ثبورا.

فكان الأحباء يقتدون بتعظيمه لهم مما خامرهم من الحال المنوط بهم بسريان سر همته بالقيام بهذا الواجب، حتى أنه كان لا يخالطه إلا المحب لأهل البيت، و لا يجالسه إلا من كان صادق الحب فيهم[1]، و يتبرأ من كل من فيه أدنى استخفاف بحقوقهم، و لأن الأعداء يحسدونه على ما يرون منه من عظيم الإحتفال بساداتنا الآل، مما لا يقدرون على القيام بأقل قليل مما يقوم به من صدق المودة القلبية و التعظيم الظاهري، بحيث كان معروفا عند شرفاء عصره برسوخ القدم في محبتهم، فلا ترى واحدا من آل البيت إلا مُثْنِيًا عليه، شاكرا لأخلاقه الجميلة عند ملاقاته لهم في الطرقات و الأماكن المباركة، و بالأخص إذا جاء شريف لملاقاته بمحله، فكان يقوم إجلالا لشرفه، و يلاقيه في الغالب من باب الدار، و يدخل معه مصاحبا لمحل الملاقاة، و قد اعتاد ذلك منه أصحابه الذين اتخذهم للقيام بشؤونه في محله، المطلعين على أحواله الداخلية في محله، فيرون منه إذا سمع بباب محله شريف إقباله على المبشر به، و قبوله الجميل بالمسارعة إلى استدعائه للدخول من غير تبربص بالباب، و قيامه لملاقاته بأتم سرور، فيدخل كل شريف لمحله فرحا مسرورا، كأنه داخل إلى محل أعز أحبابه، مستبشرا بنيل ما في نيته من مطالب الدنيا والآخرة.

---

[1] ـ كان الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه شديد المحبة لساداتنا أهل البيت النبوي الشريف، دائم التعظيم لهم، قوي الإعتقاد في جانبهم، يأمر باحترامهم والإحسان إليهم وإكرامهم، وكثيرا ما كان يوصي أصحابه بمراعاة حقوق ساداتنا الشرفاء، ويذكرهم بقوله تعالى: قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى، وهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته، فمن نظر إليهم بعين التعظيم فقد رشد و هُدِي إلى صراط مستقيم، ومن استهان بهم وأجحف في حقهم فقد ضل سواء السبيل.

قال العلامة سيدي محمد الحجوجي في الجزء الأول من كتابه: إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، قال: ومن عادة مولانا الشيخ رضي الله عنه أنه كان لا يترك أحدًا من الأشراف يقبل يده، ولا يمد رجله بحضرة شريف أبدا، وإن دخل شريف وهو ماد لرجليه جمعها ولو كان نائما. إهـ

وذكر العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في الجزء الثاني من كتابه رفع النقاب (ترجمة سيدي الطيب السفياني) قال: كان من عادة سيدنا رضي الله عنه أن لا يمكنَ يده لأحد يقبلها، خصوصا ساداتنا الشرفاء، وحدث يوما أن سيدي الطيب السفياني قبل يد مولانا الشيخ رضي الله عنه على حين غفلة، فأمره الشيخ رضي الله عنه أن يمكنه من يده ليقبلها هو الآخر، فقال سيدي الطيب السفياني لسيدنا رضي الله عنه: والله يا سيدي إن قطع يدي لأهون عليّ من أن تقبلها، فقال له رضي الله عنه: كيف يقبل يدي واحد من آل البيت، والله حتى تمكنني من يدك، فمدَّ آنذاك سيدي الطيب يده وقبلها مولانا الشيخ رضي الله عنه. إهـ..

و إذا خرج يشيعه فيذهب من حيث أتى ظافرا بمنتهى السول، فيؤمل العودة لملاقاته كل من اجتمع به منهم، و يتمنى البقاء معه و لا يفارقه إلا بالجسم عندما تدعوه الضرورة للذهاب لمحله، تاركا قلبه عنده، هذا دأبه دائما مع ساداتنا آل البيت الكرام، سيان الفقير والغني، بل ربما يلاحظ الفقير بكمال الإنبساط عندما يكون الشرفاء مجتمعين بحضرته، فيشعر بذلك منهم و من غيرهم من له نعمة منبسطة، فيتنزل غاية التنزل عن النظر لدنياه إلى معرفة قدر النسبة التي هي المزية الكبرى، و الخصوصية التامة المختص بها أهلها، بحيث لا تنال بكسب و لا اكتساب، فهي محض موهبة في سابق العناية بهم بين سائر الإنسان.

ولقد شاع قيد حياته رضي ا عنه كمال حزمه في الإعتناء بأهل النسبة و عظيم احترامهم، وبعد مماته صار يُضْرَبُ به المثل في مجالس كل من عرفه منهم، و لا زال إلى الآن يتحدث به أهل النسبة ممن تلقوا ذلك من آبائهم الذين لاقوه، و شاهدوا ذلك التعظيم منه عيانا لهم ولأمثالهم من آل البيت، قوى ا مددهم، وزكى عددهم، و يعرف ذلك منهم ممن دخل في طريقته، ومنهم من لم يدخلها، فهو في ذلك سواء في التنويه بقدره إلى الآن، و لا ينكر هذا إلا من له تنافر باطني موجبه الحسد، الذي يفضي بصاحبه للبغض والكراهية.

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد[1]

و قد كان رضي ا عنه في مجالسته لسادتنا آل البيت يعرفهم بقدرهم و حق مقدارهم[2]، فترتبط حبال مودتهم القلبية، و يحصل الإئتلاف بينهم على قلب واحد، فتسري بينهم المودة و تتصل القرابة النسبية بحال داخلهم، و همة نافذة في سرهم، فيصير كل واحد بما خامره إذا لقي شريفا

[1]- البيت للعلامة الجليل عبد الله بن المبارك الحنظلي التميمي المتوفي سنة 181 هـ

[2]- قال العلامة سيدي محمد الحجوجي في الجزء الأول من كتابه: إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية: ما بلغنا عن أحد من أهل وقته أنه كان يعظم أهل البيت كهو رضي الله عنه. إهـ.. ثم قال في موضع آخر من الكتاب المذكور: وكان لا يهدي لهم إلا الذهب، وما ثبت لدينا أنه أعطى لشريف فضة. إهـ..
وكان رضي الله عنه يتبرأ من كل من سولت له نفسه إذاية ساداتنا الشرفاء والإستهانة بحقوقهم، وقد قيل له مرة: إن فلانا يؤذيك، وكان شريف النسب، فقال رضي الله عنه: أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبحت لهم عرضي.
ومما يذكر في هذا الصدد ما جاء في كناش الفقيه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي. قال: قال الولي الصالح العلامة سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه: وجه مولاي سليمان للشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه يسأله عن سبب امتناعه لدخول ضريح مولانا إدريس رضي الله عنه، فأجابه بأن القبة مشحونة بمقابر الأشراف، فلا يحل المشي فوق مقابرهم، قال له الشيخ رضي الله عنه: من عرف قبر الشريف واعتمد المشي عليه دخل النار.

مثله يؤدي له من البرور، ما تنشرح به الصدور، وهكذا الشريف الآخر إذا لقي شريفا من أهل الطريقة و غيرها، أما العوام فكان يعاملهم بما يهذب أخلاقهم، و يعرفهم بحق النسبة، فيقع كلامه منهم موقعا جسيما، حتى تتمكن في قلوب جميع من اجتمع به منهم حب كل منتسب للشرف، وسلكوا في مودة آل البيت مسلكا قويما، فبان للعوام شفوف رتبة آل البيت عنده عيانا، فحملهم صدق الحب منه على كمال الصدق في حب جانبهم، فلا تجد عاميا إلا و هو في نفسه ظاهرا و باطنا معترف بفضلهم و رفع قدرهم، و يعد نفسه سعيدا إن أقبل عليه واحد منهم، فسرت مودة ساداتنا آل البيت في قلوبهم، و بسريانها انجذبت قلوب ساداتنا آل البيت لحبهم، والإغضاء عن عيوبهم، فارتبط الفريق بالفريق، و لو لم تجمعهم رابطة الطريق، حتى انتقل الشيخ رضي ا عنه، و انتقل خاصة أصحابه.

و هم بهذا الوصف منصفون على أكمل وجه، و حين جمعت طريقته المحمدية الغث و السمين، وتحزبت الطرق، و كاد أن ينسد بالتنافس النفساني بينهم الأفق إلى زماننا، تغير قلوب البعض على البعض، و كاد أن يطبع على الغالب من الطوائف بطابع البغض، و لم يجد العامة من كل طريق من يرشدهم لصلاح أحوالهم، لانقباض الخاصة عن كشف ما حل بهم ليقتدوا بهم في أقوالهم و أفعالهم، تحققا بأن العامة عموا و صموا عن كل مرشد، و تصدر من لا يستحق التصدر للأخذ باليد، و إنا من جموع تجتمع على من لم يشفق منهم على نفسه، و يشير بالخصوصية لنفسه بين أبناء جنسه، يتعصبون لما تميل إليه نفسهم، و يجدونه معينا لهم على نحسهم، فانقطع في الطريق الواحدة جماعات، يشتم البعض البعض، و انحلت رابطة المودة من بينهم في الطول والعرض، فتنافرت النفوس و كاد أن يعم هذا البلاء الأذناب و الرؤوس، و ليس هذا بالأمر الهين، ولا يرضى به كل متدين.

إن دام هذا و لم تحدث له غير　　　　لم يبك ميت و لم يفرح بمولود[1]

فقد انعكست الأمور، بما يختلج في الصدور، فصار العامي يزاحم الشريف في خصوصيته، وصار الشريف يعين العامي على مصيبته، فلم يشعر العامي ليتلافى ما سيحل به من التلف، وما درى المسكين أنه ذبح نفسه بلا سكين في ترك القيام بحق الشرف، و طفق الشريف في

---

[1]- ذكره الحافظ السيوطي في كتابه الإزدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، وقال: قال القالي في أماليه: أنشدني ابن دريد قال: أنشدني الحسن بن خضر قال: أنشدني رجل من أهل البصرة قال: أنشدني أبو هلال:

هذا الزمان الذي كنا نحـــــــذره　　　　فيما يحدث كعبٌ وابن مسعود
إن دام ذا العيش لم يحزن على أحد　　　　ممن يموت ولم يفرح بمولود

معاملته ماشيا على انحراف يقف به العامي على شفى جرف هار من عدم الإنصاف، أستغفر ا إن الإنصاف من شيم الأشراف، و لكن منا الإنحراف.

فيا خسارة نفس في تحاملها   على ذوي الشرف العالي على الشرف

و لقد ألف العلامة الفاضل، صاحب التآليف العديدة المفيدة، سيدي محمد بن المشري[1]، أحد خاصة أصحاب سيدنا الشيخ التجاني رضي ا عنه تأليفا لطيفا تلقاه عن سيدنا رضي ا عنه، سماه: نصرة الشرفاء، أعرب فيه عن بعض ما تستحقه النسبة الشريفة من الإجلال و الإحترام، و ما ينبغي النهوض له من الحقوق بأتم قيام، فليراجعه المريد، فإنه في بابه مفيد، و هو مغن عن المطولات، بما اشتمل عليه من الكمالات البينات، التي لا يحتاج في كمالها لإقامة البينات، وحاصله:

فلا تعدل بآل البيت خلقـا   فآل البيت هم آل السيـ ـ ـاده
فبغضهم من الإنسان خسر   حقيقي و حبهم عبـ ـ ـ ـاده[2]

فإذا تمهد هذا على سبيل الإشارة، الذي لم تؤد حقه العبارة، فلنفصح عن المقصود من هذا التقييد المسمى ***برسالة الإمتنان و الرحمة، إلى سائر الأمة، ببشائر التهاني، في مطالب التجاني،*** وإن كان موفيا بالتنبيه على مضمن مسماه، فإنه طالما اختلج في صدري القيام لجمع ما توفر عندي من مطالبه رضي ا عنه الخاصة به، و العامة الشاملة لأهله و أولاده و أهل مودته و قرابته، وسائر أحبابه و أصحابه، و جميع المنتسبين لحضرته، مما طلبه من الحضرة المصطفية والحضرة القدسية من الفتوحات و المقامات و الدرجات، و سائر ما هو من خير الدنيا والآخرة، فلم يدع نفيسا إلا و طلبه، و لا أنفس شيء إلا و سأله، حتى بلغ الغاية التي لا أبلغ منها، وحصل على السر الذي برز عنها، فنال من الحضرة المحمدية قربا لم ينله غيره، و نال من

---

[1]- سيدي محمد بن المشري أحد خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[2]- البيتان للشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي، ذكرهما في كتابه الفتوحات المكية 7: 255-256 الباب 502، قال: ولقد أخبرني الثقة عندي بمكة قال كنت أكره ما يفعله الشرفاء بمكة في الناس، فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي معرضة عني، فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها، فقالت: إنك تقع في الشرفاء، فقلت لها: يا ستي ألا ترين ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بَنِيَّ؟ فقلت لها: من الآن وتبت، فأقبلت عليّ واستيقظت.

فلا تعدل بأهل البيت خلقا   فأهل البيت هم أهل العباده
فبغضهم من الإنسان خسر   حقيقي وحبهم عبـــــاده

الحضرة الإلهية ما فاض من بعض جوده على الوجود خيره، فرعا مطالبه العاجلة وفق ما تمناه، و تحقق بأن مطالبه الآجلة سَيَرَاهَا فوق ما يهواه، فإن تحصيل العاجل المطلوب تعجيله، عنوان على تحصيل الآجل المؤمل تأجيله.

وسأملي في هذا التأليف مما وقفت عليه بخط يده من مطالبه من الحضرة المحمدية، وجوابها الشريف بخط الواسطة المعظم سيدي محمد بن العربي الدمراوي[1] رضي ا عنه، و ما نقلته مباشرة من ذلك و بواسطة، ما يعرف به الواقف عليه قدر هذا الشيخ الذي أشرقت أنواره وعمت الكون أسراره، رضي ا و أرضاه و عنا به، و قد حملني على جمعها في هذا المجموع، جعله مخصوصا في هذا الموضوع، بعد تردد تواردت علي فيه الخواطر، و اختلف علي فيه النواهي والأوامر، فتارة كنت أعزم على جمعها لإفادة الإخوان، و تارة أرجع عن هذا الصدد بعزم قوي خشية الإنكار علي في ذكر ما لا يُذْكَرُ إلا للأعيان، ثم نظرت إلى ما يرجح لي ما أعتمد عليه في الفعل أو الترك، و طال تشوفي لإشراق نور التوفيق لأحد الجانبين، حتى دعاني داعي العناية للنهوض إلى نفع الناس على العموم بهذا التأليف، الذي يستفيد منه أهل الإستفادة ما يشفي لهم الغليل، فتقر به عيونهم، و تنجلي به غيونهم، فيقدرون قدره بالدعاء الصالح للمؤلف، رغما لأنف كل حسود يكفر نعمة الوقوف على ما لم يكن لديه اطلاع عليه قبل العثور في هذا المؤلف.

فقد بلغنا عن بعض الإخوان أصلح ا لي و له الشأن أنه لما وقف على بعض أسرار الطريق مما ذكرته في غير هذا التأليف، و أتحقق بفضل ا أنه لو لم يره فيما ألفته ما عرفه، و لا وجد من يعرفه إياه، أَخَذَتْهُ النفس بحظها فأنكر علي ذلك، و شنع علي غاية التشنيع حتى غَيَّرَ قلوب بعض الأحبة علي، و ما درى أن ذلك نزر يسير مما لم يحط به خبرا، و بسببها قد نال غيره خيرا.

و ما علي إذا قصدت نفع أخ	و كان في نفعه إرغام حاسده
و ما علي إذا ما صار منتفعا	به و عم به نفع لواجـ ـ ـ ده

[1] ـ سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي أحد خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

ذلك دأب ذوي الصدور السليمة، فإنهم يقصدون نفع الخاصة، فتنتفع بذلك العامة، و قد جرت عادة ا أن الأسرار تدافع عن نفسها، فلا ينتفع بها إلا من كان من جنسها، فاندفع ما يهول به المهولون، و انجلى ما ينكره المنكرون، فكان من جملة البواعث على النهوض لتأليفي هذا، وهو في الحقيقة تأليف للشيخ رضي ا عنه مُبَشرَةٌ منامية، رأيتها إثر استعمالي لقصيدة على لسان أحد الخاصة الأحباء المحبين في مدح الجناب الأحمدي التجاني، استمناحا لنيل ما يؤمله من بشائر التهاني، و نصها:

إني قصدت حماك طالبا مـ ـ ـ ددا	و من إليك أتى ينال ما قصـ ـ ـ دا
سيان ناء و دان في الوصول إلـ ـى	نيل الأماني و ما أحصيهم عـ ـ ددا
و الكل يثني على علاك حيث لـ ـه	كمال فضل به الوجود قد شهـ ـ دا
يا أيها الخاتم الذي به ختم الـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـه الولاية و اقتدى به السعـ ـ ـ ـ ـ دا	
أنا عبيدك في سر و في عل ـ ـ ـ ن	فكن لعبدك يا مولاي مستنـ ـ ـ دا
و كن له خير منج منجدا بجـ ـ دى	فيها كمال المنى و تذهب النكـ ـ دا
فقد حططت رحالي في حماك لكي	أحظى بإصلاح حالي فامنح الرشدا
مولاي يا أحمد ابن سالم سنـ ـ دي	يا خير من لذوي العليا غدا سنـ ـ دا
با جد لي بالمقصود عن عجـ ـ ل	و لا تخيب لظني فيك ما اعتقـ ـ دا
ما لي سواك من السادات أقصده	و ليس غيرك لي أراه معتمـ ـ ـ دا
و قد مددت يدي لكي تعاملنـ ـ ـ ي	فمد لي سيدي من الأمان يـ ـ ـ دا
فبالنبي أتيت في مداخلتـ ـ ـ ـ ي	على علاك لتشفي القلب و الجسـ ـ دا
فالقلب مني عليل لم يفـ ـ ده دوا	نعم شفاء غليلي منك قد شهـ ـ ـ دا
و أنت أدرى بأحوالي و ما طلبت	نفسي و ما هو في الدارين لي حُمِدَا
و في بلوغ مناي عيل مصطبري	و طال منتظري فلتكشف الكمـ ـ دا
حاشاك يا سيدي أن لا تواصلني	و الوصل منك لمثلي دائما عهـ ـ دا
من للضعيف و من للمقترين و هل	سواك يمنحهم طول المدى مـ ـ ددا
لالا و حقك أنت خير واسطـ ـ ـة	بين الرسول و بين الكل قد وفـ ـ دا

مني عليك سلام ا يشمل مـ ـ ن	به اقتدى فغدا من جملة الشهـ ـ دا
ما قال ذو مهجة في الحب صادقة	إني قصدت حماك طالبا مـ ـ ـ ددا[1]

و ذلك أني رأيت رؤيا في ليلة مباركة سيدنا القطب التجاني قدس سره من غير شك عندي فيه أنه هو مقبلا على فرس في صحبته أحد خاصة مقدمي طريقه، و لعله المقدم الفاضل محبنا وحبيبنا سيدي الحاج الطيب السفياني[2] زاد ا في معناه، فلما تشرفت برؤيته وقفت إجلالا لحضرته بالطريق التي هو مار عليها باسطوان باب دار هناك، و المطر ينزل، فوقف سيدنا رضي ا عنه يتكلم معي حتى قال: أتعرف كتابي المسمى كذا؟ فقلت: هو عندي يا سيدي، فقال لي: والكتاب الذي عند أخيك عبد الخالق[3]، فقلت: يا سيدي ما اسمه، فقال: رسالة الإمتنان والرحمة إلى سائر الأمة.

---

[1]- قالها في مدح مولانا الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، باقتراح من السيد الحسن بن المقدم الأجل سيدي محمد بن عبد الله، وهي ضمن القصائد الموجودة ضمن كتابه النفحات الربانية في الأمداح التجانية (باب حرف الدال) ص 56-57.

[2]- المراد به الشريف البركة المقدم سيدي الطيب بن أحمد بن الطيب السفياني، أحد شيوخ المجيزين للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[3]- هو رابع إخوة العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج. ولد بفاس عام 1307هـ. وبها نشأ وشب. فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم. قبل أن يلج جامع القرويين. حيث تلقى بها قسطا وافرا من تعليمه. بيد أنه توقف عن الدراسة بها لأسباب قاهرة. وذلك عقب وفاة والده عام 1328 هـ. فاشتغل إذ ذاك في بعض الأعمال الحرة إلى حين عام 1332 هـ. وهو العام الذي عين فيه شقيقه العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج ناظرا لأحباس فاس الجديد. فعمل بجانب أخيه في الوظيفة المذكورة. بعدما اتخذ له سجلا يدون فيه مداخيل الأحباس باليوم والشهر والسنة.

ثم تخلى عن هذه الوظيفة مباشرة لدى انتقال أخيه لخطة القضاء بمدينة وجدة. لكنه عاد ليعمل بجانبه من جديد حين تعيينه على رأس القضاء بمدينة الجديدة. فكان كاتبا له. ينسخ الرسوم العدلية بخطه الأنيق. بيد أنه ما لبث أن تخلى عن هذه الوظيفة. وذلك لدى انتقال أخيه للقضاء بمدينة سطات.

وهو إلى جانب ما ذكرناه واحد من جلة مريدي الطريقة التجانية في وقته. تمسك بها منذ السنين الأولى من شبابه. وذلك على يد المقدم الشريف سيدي الطيب السفياني. ومما يذكر عنه في هذا الصدد أنه كان شديد الاهتمام بالزاوية التجانية الكبرى بفاس. حريصا على أداء ذكر الوظيفة بها بعد صلاة المغرب من كل يوم. كما كان يصلي بها معظم صلواته الأخرى، وهو علاوة على ذلك رجل محبوب. على جانب من حسن الخلق والخلقة. مجبول على محبة الخير. دائم الابتسامة. مشرق الوجه. عذب الكلام. حسن المعاملة. يتحلى بذكاء وفطنة زائدة.

وقد أثنى عليه شقيقه العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في كتابه: تاج الرؤوس في التفسح في نواحي سوس. فقال في حقه:

وأخي الشقيق الذاكر المشكور عبـــــــــد	الخالق المحمود في الأقـران
سلك الطريقة للحقيقة فارتوى	من وردها بل سرها الحقاني
لولا مزيد تشدد في دينــــه	لشهدت فيه بأنه فردانـــــي
فسد الزمان فساد فيه بهمـــة	رقته في العليا على كيـوان

توفي صبيحة يوم الخميس 25 ربيع الثاني عام 1361 هـ-16 أبريل 1943 م. على إثر مرض لم يتمكن من التغلب عليه. إذ لم يمهله أكثر من أسبوع واحد. وذلك من جراء المجاعة والوباء الذي عم مجموع أرض الوطن إذ ذاك. بسبب مضاعفات الحرب العالمية الثانية ونتائجها الوخيمة.

فجال فكري في استحضار كتاب يسمى بهذا الإسم، فأكد رضي ا عنه علي فيه و صد، فتناسيت اسمه و تبعته، و قلت له: يا سيدي ما اسمه؟ فأقبل علي رضي ا عنه و قطب بين حاجبيه كالمنكر علي: قائلا بلسان حاله: أمثاك من يجهله، فقلت له: سأحوزه يا سيدي منه، ثم جد في سيره، و قلبي سائر معه يتبع طريقه التي مر عليها، و سرت أخطو من ورائه باختلاس خشية أن يراني، حيث أظهرت له من نفسي أولًا أني متوجه عند الأخ المذكور لأحوز ذلك الكتاب، فاستيقظت و على بالي إسمه، وكدت أن يتخيل لي أني رأيت مسماه، حتى استحضرت الرسالة التي ألفها الخليفة المكرم سيدي الحاج علي حرازم رضي ا عنه، المسماة برسالة الفضل والإمتنان.

ففهمت أن الشيخ رضي ا عنه يؤكد علي في تأليف الرسالة التي أشار لي أنها عند الأخ عبد الخالق تسمى بذلك الإسم، تشتمل على ما كنت أتردد في جمعه من تلك المطالب الشريفة، الدالة على مقاماته المنيفة، و إن مقصوده عند الأخ المذكور بأنها سيخلقها الحق و تبرز للوجود، فتحركت الهمة لجمعها في رسالة أسميها بهذا الإسم، و لكن لكثرة الأشغال، و تشويش البال، لم أتفرغ لهذا المقصد، و لم يساعد الوقت فيه بالأخذ باليد، و بينما أنا مصمم على استعمال هذا التأليف اقتات السوف الشوق، و حال المتشوف لأمر والتسويف يرفعه من غد لغد معروف، إذ سطع نور التوفيق، بصادق العزم على السلوك على أقوم طريق، في القيام بجمع ذلك، بعدما اجتمعت في حفلة مباركة مع حضرة الشريف الجليل، المدرس النبيل، سلالة الأماثل، المتحلى بسمي الشمائل، أبي العباس مولانا أحمد بن الولي الصالح مولانا علي بن عبد الواحد من دار المقدس المولى عبدا قدس ا روحه.

و حدثني بأنه رأى في رؤيا نفسه في الزاوية التجانية المباركة التي بها ضريح سيدنا رضي ا عنه، و هي غاصة بأعيان الإخوان، و العبد الضعيف من جملتهم، و الأنوار محدقة بذلك الجمع، فإذا بالضريح الشريف قد انشق و خرج منه سيدنا رضي ا عنه في أجمل منظر، وبيده تقاييد ورسوم و أوراق، فوقف ينظر يمينا و شمالا حتى وقع بصره علي، فأشار إلي من بين ذلك المجمع، فنهضت لأمره الشريف، حتى مثلت بين يديه، فتكلم معي كلاما سريا، و دفع بيدي تلك الأوراق، و الشريف المذكور يشاهد ذلك، و يتعجب من تخصيص الشيخ رضي ا عنه لي بذلك من بين ذلك الجم الغفير، قائلا: ما ذلك إلا لخصوصية و شأن كبير، فاستيقظ من رؤياه، فذهب بنفسه لزيارة الضريح المنيف، عازما على بشارتي بهذه المبشرة، بنيل أسرار للقلوب

منورة، ضمن ما أمكنني مما أظهره و أسره، فتحققت بكمال الإذن في هذا التأليف الجليل، و إن تلك الأوراق هي المطالب التي كنت وقفت عليها بتوفيق الجليل، فتأكد عندي القيام بحق هذا المشروع، و التعجيل بإخراج هذا المجموع، على حسب ما جرى به القلم في هذا الموضوع، من غير تأنق في جمعه، و لا تصنع في وضعه، ليكون موفيا بالمقصود، على وفق ما هو لدي متيسر موجود، و إن كانت الصناعة التأليفية تقضي على المؤلف بالتأنق في الترتيب، و حسن تناسق التبويب، لتكون العبارة جَلية، و الإشارة علية، و الفائدة تامة، و العائدة عامة، فيجمل الوضع، ويكمل النفع.

و قد آن أن نفصح عن هذه المطالب على الوجه الذي أردته، و أجول في ميدانها على حسب ما فهمته، فإن يكن صوابا فمن ا التوفيق ببركة الشيخ رضي ا عنه. ونظرته النافذة في قلب أهل محبته و السالك على طريقه، و إن يكن غير صواب فالتماس المعذرة عند أهل الإنصاف محقق.

و عين الرضى عن كل عيب كليلة و لكن عين السخط تبدي المساويا[1]

فإن كان خطأ فادحا، فالمرجو منهم إصلاحه بالتنبيه عليه، خشية أن يقلدني في ذلك الخطأ من كان مثلي متقيدا بحبل الجهل، أو كان عالما و محبته ألزمته الوقوف مع ما رآه ممن يعتقد فيهم أنهم من ذوي الفضل.

و للبغض عين لا تزال عبوسة و عين الرضى مكحولة بالتبسم

و المأمول من المولى أن ينفع به نفعا عاما، و يجعله في حيز العمل الذي يكون بالإخلاص تاما، فننال به حسن القبول، و نظفر به بعطفة الشيخ رضي ا عنه من ا و الرسول عليه السلام بلوغ المنى و كمال السول، لا رب غيره و لا يرجى إلا خيره، و صلى ا على سيدنا محمد وآله وصحبه و سلم

---

[1]- البيت للإمام الشافعي رحمه الله قاله في مطلع أبيات ونصها:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السُّخط تبدي المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابنـــــي ولست أرى للمرء ما لا يرى لِيَا
فإن تَدْنُ مني تَدْنُ منك مودتـــي وإن تَنْأَ عَني تَلْقَنِي عنك نَائِيَـــا
كِلانا غنيٌ عن أخيه حيَاتَــــــهُ ونحن إذا مِتْنَا أشدُّ تَغَانِيَــــــا

سابقة فائقة ببسط الحق لاحقة

اعلم أن أشرف هذه الأمة المحمدية على الإطلاق صنفان، **الصنف الأول** شرفه مكتسب بالتخلي عن الرذائل، و التحلي بأحسن الشمائل، و فعل المأمورات، و اجتناب المنهيات، بحيث يحصل للفرد الواحد من أفراد هذا الصنف حال مع ا يدخله بذلك لحضرته القدسية، فيكون من الواقفين على سر التقوى المختصين بمحبته، فيصلح للأنس و الإنبساط بقيام الحق مقامه في حضوره وغيبته، بما له من صدق معاملته في خدمته، قد أدى مفروضاته كما أمره، و اكتسب من نوافل الخيرات حتى أحبه بمقتضى: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره[1] ...إلخ.

فبهذه الخدمة حصل على سر الولاية، فعد من أهل ا الذين يحارب عنهم كل من عاداهم بمقتضى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، فهذا الصنف هم الأولياء على اختلاف مراتبهم ومشاربهم، فقد شرفهم ا بانتمائهم إليه و إقباله عليهم بما لم يُقْبِل به على غيرهم،

و هم أمناء ا في خلقه و هـ ـم	نجوم اهتدا إن غاب نجم بدا نجم
لهم نظرة في الكون منه بها عُدت	مراتبهم حقا على غيرهم تسمـ ـو

ألا إن أولياء ا لا خوف عليهم و لا هم يحزنون[2]، فالويل كل الويل لمن عادى واحدا منهم، ولو تعلق بحبال أهل ا كلهم، فهو بمعاداته لواحد صار عدوا للباقين، و إن فرض قبوله في الظاهر عند واحد منهم فهو في الباطن مطرود.

و كيف يقبل ما عادى الأحبة فـ ـي	بساط أنسهم بعد المعـ ـادات
لا يدخل الحضرة المصون جانبها	إلا فتى لم يزل يبدي المودات

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته. إهـ.. رواه البخاري (كتاب الرقاق) باب التواضع رقم 6355.

[2]- سورة يونس، الآية 62

أما و ا إن أهل ا على الحقيقة كلهم واحد في حب من أحبهم كلهم، و بغض كل من عادى واحدا منهم، و لو تقرب إلى الباقي بما في إمكانه من أنواع المبرات، و أدى فوق ما طولب به من الأدب في حقهم في سائر الأوقات، سيان في ذلك الأحياء و الأموات، فالنجاة لكل موفق إنما هي في المودة للجميع، و حب كل منتسب للحضرة كيف ما كان بمجرد الإنتساب لهذا الجناب الرفيع، وليحذر العاقل من تخصيص الإحترام بمن تقدم، فيحرم من أهل وقته[1]، و لو كان كيف ما كان، وذلك مراد الشيطان، فقد عانق النفوس، و أدلى لها بالغرور حتى طأطأت له الرؤوس، فصارت تنظر المزية لها على غيرهما.

فانسدل الحجاب على الخاصة بين العامة، و تكاثفت حجب المعاصرة بهذه الداهية الطامة، فساءت ظنون البعض بالبعض، و كادت أن تنحل عقدة الأخوة الإيمانية بشدة البغض، فتجد جماعة المسلمين تشتم جماعة، و ربما أخرجوهم من الإيمان بما يشنعون به عليهم بأقبح إشاعة، وهم برءاء مما نسبوا إليه أو نسبوه إليهم، حتى كاد أن يعم هذا البلاء للخاصة، خصوصا من يتصدر في الطرق، فيجمعون عليهم عواما عميت قلوبهم عن النظر لأهل الخصوصية بالإحترام، و لم يتنزلوا عن مراتب نفسهم باعتقاد الخير في كل فرد من الأمة، فيؤدون له حق الأخوة الإيمانية بإغضاء عين القلب عما يظهر منه من العورات، فضلا عن كف لسان الثلب بما ليس فيه، و ترك بث البغض في قلوب إخوانهم، و إنا ممن تحزبوا عليه و تعصبوا له إن لم يكن له من ا واعظ ينزجر به عن الخوض في غمرات الهوى، في حالتي القرب و النوى، تنظره يوقد نيران الفتنة العدائية بينهم، و يكون معينا على إتلاف نفسه و إتلافهم، فلو عامل ا بصدق هذا المسكين المتصدر للتلقين، و صدق ا في نفسه لنصح و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم، بمقتضى: الدين النصيحة[2].

فيبذر في القلوب حب الإحترام لكل منتسب، فينبت فيها فنون المحبة فيهم، فتثمر مودة قلبية تسري بين قلوبهم المؤمنة، فيتم الإخاء و ينجلي الشقاق، و تسقط أوراق الشقاء، كما هو عليه خاصة أهل ا المحمديين في طرقهم، كما عليه طريقتنا المحمدية التجانية، فقد كان سيدنا رضي

---

[1] - من هذا القبيل قول الشاعر جعفر بن محمد المعروف بابن شرف القيرواني، حيث قال:

أُغْرِيَ الناس بامتداح القديم وبذم الحديثِ غَيْرِ الذَّمِيمِ
ليس إلا لأنهم حسدوا الحَـــــــــيَّ ورقوا على العظام الرميـــمِ

[2] - إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. إهـ.. أنظر صحيح الإمام مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان أن الدين النصيحة رقم 159.

ا عنه قائما على ساق الجد في زرع محبة أهل ا في قلوب كل من انتمى إليه أو تعلق بحبله، ويؤكد على الخاصة منهم و العامة باحترامهم و تعظيمهم، و يكبر عليه أدنى استخفاف بمن ينتمي لأي طريق من الطرق، و ينقطع بالكلية عمن شم منه رائحة الإنكار على أهل النسبة بعدما يبين له عاقبة الأمر ليتوب على يده من ذلك الشر في الجهر و السر، حتى كان حزبه المنتمي إليه أحب الخلق في أهل ا .

ولا زال بحمد ا ذلك ساريا في سر التجانيين الحقيقيين الذين تمسكوا بحبل الطريقة، و اقتدوا بسيدنا رضي ا عنه فيما بنيت عليه طريقه من قواعد الشريعة و الحقيقة، و تبعوه في أقواله وأفعاله، فخامرهم حال رباني من أحواله، فحافظوا على أوراده، فسرى لهم الحظ الأوفر من إمداده، و ذلك هو الذي يصرح به في مجالسه في ارتباط الرابطة السرية بينه و بين كل من دخل في طريقه قيد حياته، و قيده في رسائله ليوفى بحقهم كل من وافى بعد وفاته، و هي في كتب هذه الطريقة مسطرة، و التزام محبة أهل ا على الداخل في طريقته والمتعلق بحبلها من الشروط المقررة كما أشرنا إليه أولا و ثانيا، و سنلم ببعض ذلك في غير هذا المحل بحول ا .

و لقد رأينا البعض إن لم نقل الجل ممن دخلوا في طريقتنا هذه قد غلوا في الطريق غلوا كبيرا، بما لم يأمر به الشيخ رضي ا عنه في معاشرة إخوانهم، فضلا عن غيرهم، فأمضى بهم التنافس في التعصب على الطرق الموجودة، و اتخذهم الآخرون بالتحامل عليهم في محافلهم المشهودة، فسرى البغض من البعض للبعض، و انتهز الشيطان فرصة تغيير القلوب فيما بينها بوشاية نفوس تسعى بالفساد في الأرض، فكان مبدؤها التعصب الديني و الدنيوي، حتى تمكن النفور بين جل الطرق و بين إخوان هذا الزمان، و لم يقف ذلك عند هذا الحد الذي يصطك المسامع منه، بل سرى للإخوان فيما بينهم، فاتخذ بعضهم بعضا سخريا، و كادت أن تنقطع الطريق بين جلهم انقطاعا كليا، و هم يحسبون أنهم على شيء من الطريق، فإذا اجتمع جماعة منهم بواحد ممن ليس على هواهم نبزوه، و بمهماز الإستهزاء همزوه، فلا يفترق الجمع إلا و قد امتلأ قلبه غيظا، ويكاد أن تفيض نفسه فيظا، فإذا اجتمع بجماعته التي من حزبه ملأ فراغا من الشتم و القدح، فتمتلأ الحناجر عما يطول عن الشرح، فتشتبك نيران العداوة بين هذا الفريق وهذا الفريق، كما شاهدنا ذلك بين أحزاب عوام كل طريق.

و الأمر من قبل و من بعد، فإن الدين الحنفي لم يجيء بهذا، و لم يرض أحد من الشيوخ بهذا، أزواجا و أفذاذا، و بالأخص شيخنا شيخ الطريقة المحمدية التجانية، فحاشاه و حاشى

طريقته من هذه الخزعبلات النفسانية، فليتق الله من يدعي التمسك بعهده، و لينظر إلى نفسه قبل أن ينقطع عن قصده، فإن طريقتنا طريقة محمدية الإنتساب، أحمدية الإكتساب، عالية المقام، غالية المرام، سهلة المأخذ في السلوك، لأصحابها نفوس الملوك، ترقى بهم مراتبها، و هم في الظاهر متنازلون و يسلكون من التواضع مسالك بين الخاصة و العامة، و بالصدق في أحوالهم متعاملون، على أذكارهم مواظبون، و على صلاتهم يحافظون، جعلوا الشيخ أَمَامهم، فاقتدوا به في الأفعال السرية و الجهرية، فبلغوا منه مرامهم بادخار الأعمال الخيرية، فأغناهم الشيخ بخيره، و لكن لم يتعدوا الطور بانتهاك حرمة غيره، فنصبوا وصاياه بين عيونهم، و بنوا عليها جميع شؤونهم، فهؤلاء هم التجانيون الحقيقيون.

و لو انكشف الغطاء عما رسم بين عينهم لوجد مكتوبا هذا تجاني حقيقي، فأما من أعرض عن هذه الطريق بما عليه أهل الإدعاء، مع ترك الإقتداء بما عليه الشيخ و خاصة أصحابه، فاشتغل في الظاهر بالأوراد، و نقض في الباطن حبل العهد بالإنتقاد على أهل الله، و انتهاك حرمتهم، وبغض إخوانه المسلمين وبالأخص الحقد على أهل الطريق التي هو متمسك بحبلها، فهو منقطع عن الطريق، لو نظر بعين الكشف لريء مكتوبا بين عينيه هذا محروم غير تجاني، فليس ملازمة الزاوية و حضور الوظيفة و ذكر الجمعة و المحافظة على الصلوات في أوقاتها غاية ما انبنت عليه أركان الطريق، بل لا بد من مراعاة الشروط الباقية.

و هي من التأكيد بمكان، يعرفها كل من تمسك بحبل هذه الطريقة من الإخوان، لاشتراطها عليه من أول الأمر، فإن الطريقة التجانية إن لم يلازم مريدها محبة الأولياء و تعظيمهم و احترامهم انقطعت فيها أمداده، و لا تنفعه أذكاره و أوراده، و كيف ينفع ذلك بعد مبارزته للحق بالمحاربة، و للنبي صلى الله عليه و سلم بالإذاية، يستحق المتصف بها شديد المعاتبة، و لا يقبل اعتباره إلا بعد التوبة النصوح، و تأكد هذا بين الإخوان في ما بينهم.

فتعين تنبيه الخاصة عليه، و تحذير العامة من الوقوع فيه، فترتبط القلوب بالمودة، و تصفو من كدر المعاداة السرية، و المنافرة الجهرية، فتجد رابطة السر قابلية في القلب و القالب، فتستحق حينئذ إنطلاق التجانية على المحافظ على أورادها، و المواظب على أذكارها بشروطها لنيل إمدادها، وأما **الصنف الثاني** فشرفه ذاتي غير مكتسب، بل العناية خصت به أهله، فلو تحلى العبد الذي لم يكن طينه من عنصره بجميع المحامد، و تخلى عن جميع المفاسد، و تجلى على كرسي الجلالة المنصوب لأكابر الأولياء على اختلاف مداركهم في القرب لحضرة القدس، وبلغ

الغاية القصوى في تطهير النفس، حتى تجلت له عيانا خرائد الأنس، بين ملك و جن و إنس، ولم يكن من أهل هذا الصنف لم ينل المزية التي نالها أهله عند ا تعالى، و هم آل بيت النبي صلى ا عليه و سلم الذين هم منه و إليه:

بضعة قد شرفت في نفسها   و تحلت بكمالات الشـ ـرف
كل علياء علت من تحتهـا   قدرها بالعز و المجد اتصف

فإن شرفهم ذاتي، و شرف غيرهم مكتسب عرضي، و قد قلت في مثل هذا:

شرف الآل لهم ذاتي غـدا   و لدينا شرف الغير عَـ ـرَضْ
فلتكن في حبهم متصفـ ـا   بكمال الصدق من غير غرض

فمحبتهم في الحقيقة محبة للذات المحمدية، و بغض واحد منهم أو إذايته بغض لها، وفي ذلك الشقاوة الأبدية كما أشرنا إليه أولا، و ناهيك بهذه الخصوصية الذاتية و الموهبة اللدنية التي لا تكسب بعمل، و لا تدرك بحيل، فماذا يوازيها في الشرف، فأقسم بمن قسم الحظوظ قسمة عدل، وأرغم أنوف حسادهم بما لهم من الفضل، بأن لهم مقدارا عظيما، ومقاما عليا فخيما، و فضلا راسخا، و مجدا شامخا.

أولئك قوم عظم ا قـ ـ ـدرهم   و فضلهم في العالمين على الغير
فإن قلت من هم قلت نسل محمد   لأجلهم يجري لنا منبع الخيـ ـر[1]

[1] ـ أجمع كبار العلماء والواصلين على أن لساداتنا الشرفاء الكرام مرتبة جليلة، تناهت عند الله تعالى إلى حد عظيم من المكانة وعلو القدر والجاه والمحبوبية الكبيرة، كما نبهوا لما ورد في حقهم من نصوص صحيحة. سواء من الكتاب أو الأحاديث والسنن والآثار.
ورحم الله العلامة الأديب سيدي محمود قابادو التونسي التجاني، حيث يقول في هذا الصدد ضمن قصيدته الميمية التي تقع في 255 بيتا:

يا أهل بيت رسول الله جاهكـــم   عند الإله عظيم الخطر مُحْتَرَمُ
يا أهل بيت رسول الله ركنكـــم   حمًى منيع بِه تستعْصَمُ الأمـــم
يا أهل بيت رسول الله ذكركـــم   هو الشفاء إذا ما أعضل الألَـمُ
يا أهل بيت رسول الله لا حَـرَمٌ   إلا حماكم بيومٍ شره عمـــــم
إذ لا يُرَى حسبٌ عَالٍ ولا نسبٌ   يوم القيامة إلا وهو مُنْحَسِـــمُ
يا أهل بيت رسول الله كمْ مِنَــنِ   لجاهكم شهدتها العرب والعجم

فالسعيد من أحبهم، و الشقي على الحقيقة من أبغضهم، أو استخف بحقهم، فإن محبيهم هم البررة، ومبغضيهم هم الفجرة، و لقد أجاد من قال:

يا بني الزهراء و النور الذي ظن موسى أنه نور قبـسْ
لا أوالي الدهر من عـاداكم إنه آخر سطر من عـبسْ[1]

يشير لقوله تعالى: أولئك هم الكفرة الفجرة[2]، فبغض معاديهم من تمام محبتهم و كمال مودتهم، ومودة مبغضيهم خدش في وجه إيمان مدعي محبتهم، و لهذا تجد الكمل من الشيوخ يعرفون تلامذتهم بحق هذه النسبة، و يجعلون نسبة الولاية مرتبطة بها، فلا تصح ولاية أحد إلا بولاء أهل هذه النسبة عموما و خصوصا، و ما ذاك إلا لحرصهم على فوز من يتعلق بهم، فيطوون له المسافات لنيل السعادة الأبدية، ثم إن الشيوخ في خاصة أنفسهم مراتبهم في الدلالة و الإرشاد متفاوتة، و تقدمهم في حضرة التداني على مقدار اختصوا به من الشرف الطيني أو الديني، فوجب وجوبا شرعيا احترامهم وفق ما أشرنا إليه في مَن انفرد بإحدى النسبتين، وبالأحروية احترام من جمع بينهما، فمقامه في الفضل أتم، فيسعد من انحاش إليه بأدنى انتساب، و يشقى في الحين معاديه من غير سبب مقبول شرعا بين الأحباب.

فلمثل هذا أفصح أهل الخصوصية ممن حصل له سر هو بين النسبتين على فضله، وحذر من سوء الأدب معه، فأحرى معاداته أو انتهاك حرمته، و إطلاق لسان الفحش في عرضه، و إن أجل شيخ جمع ا له بين هاتين المزيتين شيخنا التجاني، فقد ظهر بهذا المظهر من الجمال لأحبائه، و الجلال لأعدائه، فهو في كمال الظهور قصم من الأعداء الظهور، و فضله يزداد انتشارا على ممر الدهور، فأما ولايته فقد شهدت بها الأموات و الأحياء من الأعداء و الأحباء، فرسمت على جبين الدهر مناقبه، لما علت على غيره في رتب المجد مراتبه، فأصبح لسان

---

[1]- قريب من هذا المعنى قول العلامة الأديب سيدي مدثر بن إبراهيم بن الحجاز التجاني، وهو من علماء السودان، كما أنه من خيرة أخلاء العلامة سيدي أحمد سكيرج بالبلد المذكور، قال ضمن قصيدة له في مدح آل البيت الكرام:

لَكُمُ السيادةُ مِنْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُـــمْ والوصفُ بالحسنى إليكم غَايَتُـــهْ
لكم الوراثة للمفاخر سادتـــــي ولكم نطاق العزِّ دَارَتْ هالتُـــــهْ
هَلْ ثَمَّ بابٌ للنبي سوَاكُـــــــمُ أنتم بنُوهُ وأهله وبِطَانَتُـــــــــــهْ
مَنْ غيرُكُمْ نسلَ الرسول محمدٍ من غيركم من ذا الورى ريحانته

[2]- سورة عبس، الآية 42

الحمد يملي من وقت ظهوره من فضائله و فضائل طريقته المحمدية إملاءات تتلى بلغات شتى إلى الآن.

و لا زال يظهر من كمالاته ما عجز عن وصفه أهل القلوب السليمة و يبرهن انتشار طريقه في كل عصر على صدق ماله من الخصوصية التي شملت كل مريد و محب ينتسب إليه. ذلك فضل ا يوتيه من يشاء و في هذا المقام أنشد ما أنشأته من النفحات الربانية في الأمداح التجانية و ذلك قولي فيه:

كلما رمت في ثناه النهايـ ـ ـه   قيل لي لم توف حق البدايـ ـه
إنما الناس كلهم إن يقومـ ـ ـوا   لثناه لم يبلغوا فيه غايـ ـ ـ ـه
كيف لا و الرضى التجاني إمام   قد غدا في الأنام ختم الولايـه
خصه المصطفى بنهج قويـ ـم   كل من سار فيه نال الهدايـ ـه
ورده قد حلا لكل مريـ ـ ـ ـد   في الأماني يريد نيل الرعايـه
و ينال الأمان دنيا و أخـ ـرى   بضمان النبي وفق العنايـ ـ ـه
لا يخاف الذي استجار به مـ ـن   كل سوء يوما و لا من إذايـه
و هو كهف يحوط من حل فيه   في الورى دائما بسور الحمايه
و هو منج و منجد لمريـ ـ ـد   من مريد أراده للغوايـ ـ ـ ـه
و هو غوث يغيث كل منـ ـاد   ببلوغ المنى و دفع الشكايـ ـه
لو أزيل الحجاب عن أعين الحـ ـ ـ ـ ـ ـساد يوما لأبصروا الشيخ آيـ ـه
آية تبهر العقول بما فـ ـ ـ ـي   ضمنها من سعادة و هدايـ ـه
حاصل القول إنه قطب دهـ ـر   ليس يلفى لفضله من نهايـ ـه[1]

أما شرفه الطيني فهو محقق النسب، و لم يكن رضي ا عنه يعول على ما هو مسموع عند الناس من صحة النسبة، وما هو مكتوب في العقود عند آبائه و جدوده، حتى سأل النبي صلى ا عليه و سلم على نسبه وحققه له، فقد صح لدينا عنه رضي ا عنه أنه قال: سألت سيد الوجود صلى ا عليه و سلم على نسبي فأجابني بقوله: أنت ولدي، وكررها ثلاثا. و إلى هذا

[1]- أنظر كتاب النفحات الربانية في الأمداح التجانية، للعلامة سيدي أحمد سكيرج، وهي آخر قصائد الكتاب المذكور.

يشير العلامة الفاضل السيد الطالب اللبار[1] أحد خاصة أصحابه رضي ا عنه في داليته بقوله في وصف الشيخ رضي ا عنه:

لما تمكن بالمنى من ربـ ـ ـ ـه ورأى التساعف من كمال محمد
أبدى السؤال أهل أنا اك مولـ د فأجابه جهرا جواب معـ ـ ـ دد
و لدي اطمأن فأنت منى بضعة و لك المعالي قد دنت فاستصعد[2]

فوجبت محبته على الخاص و العام، بما له من هذا الفضل التام، و من هنا نصرف الوجهة إلى ما قصدناه من مطالبه، الدالة على علو مراتبه، و فيها من التنويه بقدره، و التزيه لسره، ما يحصل به الحال القوي، بالنهج على صراطه السوي، و يعلم مريده ما طلبه في بداية سيره، حتى حصل على سره، و يعرف غيره جلالة منصب هذا الشيخ الذي ختمت به الولاية، و فتحت به أبواب الخيرات التي ليس لها غاية، غير أني لا أبوح بالمتعين كتمانه، خشية أن يكون لي طي النفع أضرار من لم يقدر على حمله أوانيه فيعظم خسرانه، فإن جل المطالب تستعظمها نفوس القاصرين، و غالب المشاهد لا تحملها عقول المعاصرين.

و لقد كان حدثني العارف با سيدي و مولاي أحمد العبدلاوي[3] رضي ا عنه أن الولي الصالح سيدنا العربي بن السائح رضي ا عنه لما وقف على مطالب الشيخ رضي ا عنه

---

[1]- الطالب بن العربي اللبار، أديب فاضل، من أعلام الطريقة التجانية بمدينة فاس، تمسك بوردها الشريف على يد الشيخ سيدي أبي العباس التجاني رضي الله عنه، وكان وقتئذ صغير السن دون العشرين من عمره، وكان شديد المحبة في جناب الشيخ المذكور، وقد مدحه بقصائد كثيرة، منها قصيدته الفائية التي تقع في 420 بيتا، قال في مطلعها:

لمليكة التذكار لا تستنكف وببذل رقك جند روحك ألف

وله في مدحه أيضا قصيدة أخرى سماها دالية التداني في مدح أبي العباس التجاني، تزيد على ثلاثمائة بيت، إلى غير ذلك من قصائد كثيرة أخرى، توفي ببلدة جنوه بإيطاليا أوائل شهر صفر 1266 هـ-1849م، وبها دفن.
أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج 342-352. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 2: 183-221. تطييب النفوس بما كتبته من بعض الدروس والطروس، للمؤلف نفسه 60. الجواهر الغالية المهداة لذوي الهمم العالية، للمؤلف نفسه 29 و 39 و51-58 (مخطوط خاص). الفتح الرباني فيما مدح به القطب التجاني، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي 2 رقم الترجمة 253. نخبة الإتحاف في ذكر بعض من منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 145. زهر الآس في بيوتات أهل فاس، لعبد الكبير بن هاشم الكتاني 1: 53-54. إتحاف المطالع لابن سودة 1: 193. موسوعة أعلام المغرب 7: 2588.

[2]- الأبيات من قصيدة للأديب الشهير سيدي الطالب اللبار في مدح الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، قال في مطلعها:

ظعن الفؤاد على الذلول الأقصد مستيقنين تملكًا بالمقصـــــد
غنت لفرقتهم وقد حامت بهـــم ورق الحمام غناء صب مفقد

[3]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

أشفق من أن تقع في يد من يتضرر بها، فمكنه منها ليوصلها بنفسه إلى خزانة الأسرار المستودعة عند أولاد سيدنا بعين ماضي، فصحبها معه حتى أودعها محلها.

وحدثني نجله أخونا في ا الفاضل البركة الأسعد، سيدي محمد[1] أمنه ا ، أنه اطلع عليها، و هو الذي جاء بها إلى الولي الصالح سيدي العربي بن السائح، فبقيت عنده مدة إلى أن قدم والده سيدي و مولاي أحمد العبدلاوي فمكنه منها، و قال للأخ المذكور: كنت عزمت على أن أجعل هذه المطالب في صندوق من حديد، و أوجهها إلى سيدنا البشير[2] و حين قدوم والدك كفانا هذه المؤنة، ثم دفعها لوالده المذكور وهي نحو العشرين كراسا تسمى **بالمواهب الإلاهية، في المطالب الأحمدية،** مكتوبة بخط أحد خاصة أصحاب سيدنا و خدامه الفقيه الأجل سيدي الحشاني [3] رحمه ا ، منقولة من خط سيدنا رضي ا عنه، يخاطب فيها سيدنا رضي ا عنه الواسطة المكرم سيدي محمد بن العربي الدمراوي، يقول فيها: إذا وصلك كتابي هذا و اجتمعت بالنبي صلى ا عليه و سلم فلتطلب منه ضمان قضاء هذه المطالب التي أرسمها في هذا الكتاب الذي هو الآن بيدي أكتبه على ركبتي ضمانا تاما شاملا عاما، و عليها جواب النبي صلى ا عليه وسلم منقولا من خط الواسطة المذكور، بضمان ذلك المسطور، و حق أن أقول في هذا البساط:

---

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

[2]- المراد به الشريف سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن الختم أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

[3]- سيدي محمد الحشاني الزيدي، من أولاد زيد، من فرقة النعمة (عمالة بسكرة) بالقطر الجزائري، فقيه جليل، كان ملحوظا لدى سيدنا الشيخ رضي الله عنه بعين الوقار والهيبة، كما اتخذه أستاذا لأولاده يقرؤهم القرآن الكريم، وزوجه بابنة بعض إمائه، وعقد له عليها بنفسه، بعدما قال له: إني أردت أن أزوجك إن قبلت بهذه، وأراه وجهها ويديها، فقال له: يا سيدي كيف لا أقبل ذلك وأنا من جملة خدامك، فأخذ الشيخ رضي الله عنه في ذلك الوقت كاغدًا، وكتب فيه ما نصه: الحمد لله أشهد على نفسه أحمد بن محمد التجاني أنه زوج مكفولته الزناتية لصاحبه سيدي محمد الحشاني. إهـ..

توفي بالأغواط عن عمر يناهز 120 سنة، وبها دفن، وفي حقه يقول العلامة سكيرج في نظمه جنة الجاني:

ومنهم محمد الحشاني — تُوِّجَ بالوقار في الإخــوان

عقد شيخنا له بنفسه — عن أمة صغيرة من غرســه

وبعدما غمره إحسانا — قرأ مع أولاده القرءانـا

فهو شيخ للحبيب والكبير — معظم عند الصغير والكبير

قد ناهز المائة والعشرينا — في عمره و بلغ التمكينـا

أنظر ترجمته في كشف الحجاب، للعلامة سكيرج 405-406. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 3: 188-189. جنة الجاني في تراجم أصحاب الشيخ التجاني، للمؤلف نفسه (مخطوط). إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي 2 رقم الترجمة 203. نخبة الإتحاف في ذكر بعض من منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 260.

إن التجاني له مطالب كملـ ـ ـت — أسرارها بضمان أفضل الرسـ ل
مطالب لم تكن تجري بفكر فتـ ى — يهتم في ذكر ما يقضي من الأمل
مطالب لم ينل سواه معرفـ ـ ـة — لما عليه انطوت من كامل النحل
مطالب ما اهتدى السوى ليسألها — من الكريم لذي علم و ذي عمـ ل
مطالب جمعت دنيا و آخـ ـ ـرة — من كل خير خفي قدره و جلـ ي
مطالب فوق ما يظن سامعـ ـها — بما لها من مقام في الكمال علـ ي

ثم إن المطالب التي ستذكر بحول ا منها ما كان قبل الفتح على سيدنا رضي ا عنه، و منها ما كان في مبادئ الفتح، و منها ما كان في أواسط الفتح قبل عثوره على الخلافة العظمى، والوقوف على المقام الأسمى، و الحصول على رتبة الختمية، و بلوغ سر الكتمية، و حين بلغ الغاية القصوى من هذه المقامات لم يبق له مطلب يطلبه لا بواسطة و لا بدونها، إلا ما كان يدعو به تعبدا للمولى وقوفًا مع حد الشريعة، بعد انكشاف الحقيقة له عن نيل كل مرتبة رفيعة.

فقد كان رضي ا عنه في ابتداء أمره يبالغ في طلب ما يرفع عنه الحجاب عن مشاهدة الرسول صلى ا عليه و سلم مناما و يقظة، بعد المجاهدة التامة بأنواع التعبدات تعالى، و فنون التقربات للحضرة المحمدية عليها السلام، حتى فتح عليه بالاجتماع به عليه الصلاة و السلام في اليقظة، و حصل على السر الذي يتوصل به لملاقاته في أي وقت أراده بكشف الحجب عن عين البصيرة، فيراه بالتبصر مشاهدة عيانا في مجلسه الخصوصي في أي مكان، فكان يهيء المطالب المهمة عنده ليسألها من النبي صلى ا عليه و سلم، يعدها قبل الملاقاة، غير أنه إذا اجتمع به ينسى جميع مطالبه لاستغراق المشاهدة في محاسنه التامة بقلبه و قالبه، فلا يتذكر مطلبا واحدا مما كان معدا عنده قبل الإجتماع به، و بعدما يفترق من الجمع به يهمه عدم استحضاره لمطالبه ليلقيها بين يدي الرسول صلى ا عليه و سلم، لما يراه من إقباله عليه، فكان في ذلك الحال على حد ما قلت:

إني لأضمر في نفسي مطالب لـ ي — إذا رأيت حبيب القلب أذكرهـ ـا
حتى إذا ما اجتمعنا صرت ناسيها — كأنني لم أكن من قبل أضمرهـ ا

فصار يستعين على استحضار مطالبه بكتب ما يهتم به من ذلك في تقاييد يمليها على الرسول عليه السلام، و يبالغ في استحضار همته لتذكرها وقت ملاقاته، فكان الغالب عليه أن لا يتذكر

ذلك إلا بعد انفصال المجمع المبارك، فأشفق من حاله صلى ا عليه و سلم، و أمره باتخاذ الواسطة المكرم، و أذنه في كيفية الإجتماع به عليه السلام، ويقوم مقامه في إلقاء مطالبه بين يديه و طلبها منه، فاتخذ الواسطة المكرم السيد محمد بن العربي الدمراوي التازي[1] لهذا القصد، و صار يكتب جميع ما يريده في تقاييد مخصوصة، يضمنها كل مطلب تعلق قلبه به، و توجهت نفسه لإدراكه، فكان الواسطة يلقي تلك التقاييد بين يدي الرسول صلى ا عليه و سلم، و يطلب منه ضمان ما فيها من كل سول، لقيامه مقام الشيخ رضي ا عنه في طلب ذلك، فتارة يجيبه بمحضر الشيخ رضي ا عنه مشافهة في فضائلها، و تارة يأمره بكتب جوابه له بما يمليه عليه، فيكتبه بخط يده حسبما بلغنا ذلك عنه على لسان الثقة، و رأينا أجوبته على غالب مطالبه التي بخطه الشريف مباشرة و بواسطة أو وسائط من غير تحريف.

لاحقة بما تقدم لائقة

كان سيدنا رضي ا عنه لا يكتفي فيما يطلبه من الحضرة المحمدية عليها السلام و من الحضرة المقدسة بالنطق باللسان المطابق لما في ضميره، بل كان يكتب ذلك في كاغد خصوصي، و يعين مطلبه الخاص كتابة، و ذلك إلا لأسرار منها أنه كان يتذكر بذلك مطالبه كلما رآها مكتوبة عنده، فيفرح لما أجيب فيه، و يلح في ما لم ينله حتى يستوفيه، و لسيدنا رضي ا عنه مآرب أخرى.

و قد أطلع الخاصة على ما في ذلك من الخاصية، يرشد إليها ما ورد في فضل التلاوة في المصحف على التلاوة عن ظهر قلب، و بيان ذلك أن الهمة تكون مجموعة، و الجوارح عاملة في مطلبها برد الوجهة إليه، زيادة على كون المرقوم يبقى نصب العين قائم الذات في الوجود، بخلاف التلفظ وحده فهو من الأعراض الغير القائمة، و إن كانت الألفاظ في نفس الأمر تتجسد أرواحا، و إن لم ير منها المتلفظ أشباحا، كما نص على ذلك أهل الأسرار، و لكن عالم الحس محرك قوي في العالم الروحاني، و قيد مثين لما شرد الواردات منها، و بعبارة أخرى مجرد النطق لا يقوى قوة النطق، و عمل اليد و النظر لجمع الهمة في التأني أكثر من الأول لا يقال العملية تشوش على التفكر في المعاني التي هي روح المطالب، لأنا نقول التفكر فيها حاصل أيضا حالة الكتابة و بعدها في النظر في المكتوب، فلا جرم أن الكتب للشيء أعظم نفعا من

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

النطق به، فإن قيل الملفوظ به يتجسد ذواتا نورانية أو ظلمانية، أو بين بين، فحسب ما تضمن فقيام تلك الذوات بالمطلوب أحسن من صور المكتوب.

فالجواب أن المكتوب تحصل منه تلك الذوات أيضا، لأن المكتوب ملفوظ به، و تتكلم تلك الذوات كلما لفظ به، بخلاف الملفوظ به فقد تضمحل تلك الذوات، و لا يكون لها نظير إن لم يحفظ ذلك الملفوظ به، سيما و اللفظ من قبيل العرض، لا يقوم بنفسه، وصورة المكتوب له تأثير قوي لدى العارفين بالرسوم، و قد نصوا على أن المكتوب له نيابة عن الكاتب في عالم المعنى، يقوم مقامه فيما انطوى عليه، فهو و إن غفل عنه فالمكتوب ينطق بما اشتمل عليه من الألفاظ، و لهذا يقولون في بعض الأذكار: إذا كتبت يحسب فضلها للذاكر، و قد قال سيدنا رضي ا عنه من هذا المعنى في السيفي[1]: من كتبه و علقه عليه فكأنه يذكره ما دام معلقا عليه، و هناك أسرار أخرى نضرب عنها صفحا غيرة عليها من أن تقع في يد المنكرين، و با التوفيق.

إعلام للإخوان

لما كان الخاصة من أهل ا مشربهم من عين الرحمة الربانية و موردهم منها بعد التلهف على قدر ما حملته آنيتهم من الفيوضات العرفانية، فتفجرت ينابيع الحكمة من صدورهم، في ورودهم وصدورهم، ما بين أعيانهم و صدورهم، كل واحد منهم على مقدار ماله من كمال الإتصال من القرب لذلك المنهل العذب، و أفاضوا على غيرهم من معين المعرفة ما شفى غليل العليل، و أقر العيون التي تتشوف إلى ما يعمها من مواهب الجليل.

تنوعت المطالب و المقاصـ ـد   على حسب المشاهد و الموارد
فهذا منهل عذب و هـ ـ ـ ـذا   يرى فيه عذاب للمجاحـ ـ ـ ـد
و هذا قد تفجر منـ ـ ـه ورد   حلا للشاربين و كـ ـ ـ ـل وارد
و هذا لم يرده سوى أنـ ـاس   به خصوا و هذا غير بـ ـارد
تخالفت المشارب و هي ممـ ـن   تفجر أصلها ردت لواحـ ـ ـ ـد

فطفق كل واحد منهم يعرب عن مقامه بلسان الشكر، بما أذن له به في حالة الصحو أو السكر.

[1]ـ دعاء السيفي، من ضمن الأذكار غير اللازمة في الطريقة التجانية، أوله: اللهم أنت الله الملك الحق المبين القديم المتعزز بالعظمة والكبرياء... إلخ